مَرْثِيّة آخِرِ الوَقْت

مصطفى خضر

سلاماً لسنبلةٍ من هواءْ
لأرْضٍ تؤرَّخُ فيها السماءْ!
هي الأرضُ ميراثُك الأبديْ
تبَارَكَ فيها وريثٌ، شهيدٌ،
وحيدٌ، فقيرْ ...
ألمْ تَرَهُ واحداً في كثيرْ
وأقمطةً في قماط الصغيرْ
وبعد الفطامِ، وقبل الرضاعْ
تكاثرهُ بذرةٌ في الجماعهْ
وتحملهُ تربةٌ وبذورْ
ويكبرُ بين السّرى والمجاعهْ!
وفي برهة حلوةٍ للسّماعْ
وللطيبِ قدّاسهُ، للبخور المدى
للفناء الصدى، للسرير الشّعاعْ
أرى كرمةً من حضورٍ نقيٍّ، خفيٍّ، تُنيرْ
جريحُ الغياب أنا أمْ جريحُ الشّهودِ الأخيرْ
به تحتمي لُمَعٌ، ثمّ تدركُ شاهدَهَا،
أو تشقُّ عن الشّعرِ صدرَهْ!
طريقٌ من القمحِ والملحِ والماءِ يخطو عليها،
وتحفظُ سرَّهْ...
وفي غسقٍ من دمٍ معدنيْ
تُؤاكلهُ الأمّهاتُ الشريداتُ من كفِّ طفلٍ
حليباً وخبزا...
فهل كان قبل الظهورِ ظهوراً،
وهل صار رمزا؟

تؤلّفه الكائناتُ فضاءً قديماً جديداً،
وللكائناتِ منازلُ عاليةٌ وخلايا ...
خلايا تباركُ فصلاً أخيراً ووقتاً أخيرا...
وللوقت كوكبُهُ من ترابٍ أخيرْ...
ترابٌ يضاعف زيتونةَ المنتهى، فتضيءْ
وفي زيتها جمرةٌ وسلامٌ ورؤيا ونورْ...
لمن كلّ هذا الفضاء العليْ
فضاء، جريٌّ، بريءٌ، مليءْ...

***

لمن ينتمي الطّينُ والكوكبُ
وكيف نما عالمٌ، واكتملْ
يشعّثهُ الصبح والمغربُ
وبحرٌ يؤاخي حجارَ الجبلْ
وبرّيةٌ من نباتٍ مضاءْ...
وجنيّتي لم تزل تُبْتَكَرْ
ضفائرَ، وجهاً، وعينين،
ثديين، فخذيْن، ماءْ...
يقرّبها الشّعرُ منّي، وتنأى
فأقرأُ سيرتَها، أكتبُ...
وبين يديَّ شعاعُ المطرْ!
هي الأرضُ ملأى، وليست بملأى!
تلوّثتِ العتباتُ اللطيفةُ،
ضاقتْ جهاتْ
وضاقتْ بنا الأرضُ،
ضاعتْ عليها وجوهُ الذّراري
وفي الأرض متّسعٌ للضّواري...

أعنّي على الحبّ بعد السَّفرْ
أعنّي على الموتِ بعد الحياةْ
أنا الولد البدويُّ الغريبُ،
الوحيد البعيدْ!
أتقوّى على الشّعرِ روح المُحبِّ،
وفي الحب كان اختياري اختباري...
وهل يستفيقُ المغنّي الشريدْ؟
متى سيُغنّي؟
وأين أُغنّي؟
وكيف أغنّي؟
... ويا أبتِ! كيف تسندُ روحي؟
امنحِ الروحَ جرعَهْ!
هو الوقتُ أجزاؤهُ ضيّعتني،
فجزءٌ يعاني، وجزءٌ يثورْ...
ولم يبقَ معنى تحاوله ريشةٌ ودواةْ
يورّثُ أسماءهُ العادلينَ،
يسمّي بفاتحةٍ للجذورْ
ولي كفنٌ في الثرى وقماط تفتّحَ فيهِ
شهابٌ، مدائنٌ، خلقٌ، نوافذُ، ماءٌ، أشعّهْ...
أتُمْتَحَنُ الكلماتُ الشفيفةُ
بين الغوى والهَوى والرّجاءْ
وتجلو سماءَ المحبِّ،
وتصفو لها قُبّةٌ وعيونْ
ومَنْ شاهدي في الحياة مع الموت والحبِّ،
مَنْ شاهدي، فيعاني الجنونْ!

***

سلاماً لسنبلة من هواءْ
لقبّة قمحٍ نمتْ بيننا، لخلايا الذّهبْ
لنحلاتها في كتاب الأمومة واليرقاتِ،

لجرحِ أبٍ يحتمي باللهبْ...
لوقتٍ بهِ كنتُ، فيهِ أكونْ
لبيتٍ عتيقٍ من الكلماتِ،
اهتدى، واضطربْ
لجنيّةٍ سافرتْ في النخيلِ
ضفائرُها أُثْقلتْ بالرّطَبْ
لجمهرةٍ من نباتِ الجبلْ
لنهرٍ أفاقَ عليَّ صفيراً،
جرى، واكتهلْ
لأمٍّ تُؤَنِّثُ بيتاً قديماً جديداً
وشرفةَ جسمٍ قديمٍ حديثْ
تزوّد خمرتُه كلَّ عينْ
لأغنيّةٍ من رماد الوريثْ
لماءٍ تُؤَنّثهُ كائناتْ،
وتؤنسُ ينبوعَه كائناتْ
وتنشرُ من فضّةٍ ضفتيْنْ
وترفو جروحاً،
وتوقظ مستقبلَ الوردة الطازجهْ
ومملكةُ الطّينِ تتئمُ فيها فروعٌ،
براعمْ...
تدوّنها رقمٌ ونباتٌ وفحمٌ وحبْرٌ
ومن قطرةٍ وشعاعٍ سلامٌ
لعينٍ تفيضُ، وكفٍّ تقاومْ
يؤرّخُ فيها الرمادُ الأصولْ،
ولمّا تزلْ ترتديهِ المواسمْ!
أللوقْتِ حلمُ؟
أفي الحلْمِ سحْرُ؟
هي الأرضُ أغنيتي الناضجهْ!

***

سلاماً لسنبلةٍ من هواءْ
لأنثى بتولٍ تشاركني غيبتي
وحضوري
وتلهجُ، تقبلُ، تلهثُ، تبحثْ
وتنتجُ، تبني، تُطَمْئِنُ، تدعو،
وترضى، وتُحْرَثْ...
وتخلفُ ذرّيةً في الأسرّةِ،
من ثمرٍ تَنْشُرُ الثّمراتْ
وفي كلّ أرضٍ بنوها
تنشّرهمْ حنطةً وعيوناً وملحاً،
وتجمعني جسداً مطمئناً،

يوزّعُ من مائه البركاتْ!
ولي عالمُ السفر الداخليّ،
ولي لغةٌ من دمٍ،
ما أورّثُ! ماذا أورَّثْ؟
ويا سفري الداخليَّ. انتهينا وحيدينِ،
زوجينِ،
منكَ ابتدأتُ لأقتلَ، أُبعَثْ...
ولي قبّةٌ وكواكبُ، لي حضْرةٌ في البدايةِ،
لي جمرةٌ حرّةٌ في الختامْ...
أعنّي إذاً في التجلّي،
أعنْ قاتلي واضحاً في الخفاءْ!
أنا بذرةُ الأرضِ جوهرُ نورٍ قديمٍ حديثْ
وطيرٌ تشاركهُ الطيرُ قوتاً ومأوى...
خروفٌ يضلُّ الخرافَ، مع الذئبِ
يرعى...
وتلهمه طرقٌ، فيجابه، أو يستكينْ
قفيرٌ من النحلِ، وردةُ عشقٍ، كتابٌ
دفينْ...
أنا العاشق الأبديُّ الخفيُّ تجلّيتُ
في خمرة الأقدمينَ، ونار الأمومةِ
والعالمينْ
وفي طرقِ السّرّ
سرّ الشقيّ، التقيّ، النقيّ، الأمينْ!
أربّي هواءً وماءْ
أقيمُ مع الملحمهْ!
سريتُ مع العارفين شهيداً
تشكّله سلطةُ الروح جسمَ رمادٍ!
وتمنحهُ فطرةً من ثرى الأوّلينْ!

***

سلاماً لسنبلةٍ من هواءْ
سلاماً لسنبلة الكلمهْ
لأجنحةٍ من سماءِ الطفولة،
تخضرُّ بعد ربيع اللقاحْ
لأشرعةٍ من نسيجِ المياهْ
لزوجين من عسلٍ، لثمار الشفاهْ
لحلمِ الثديِّ، وللطفلِ يحبو، لينبوع ماءْ
لفخذين من قمحِ تربتنا الكوكبيّةِ،
للكرمِ تتئمُ فيه الدوالي،
وللنّحل زُفَّ إليه الصباحْ!

***

أتظلمُ مملكتي الداخليّةُ؟
تلك فصولٌ تجعّدها الجمهراتُ،
ويكبرُ فيها رمادٌ وجثّهْ...
وأين جنودي؟ وهل ضاع عرشي؟
وأين أميرته الذهبيّةُ؟
هل ضاع خاتمها الكوكبيُّ؟
وضاقَ فضائي، وضيّعتُ مهري الطعينْ!

تلوّثت الأرضُ، والروحُ رثّهْ
سلاماً لبرهة عشقٍ، لكأس اليقينْ
لقدّاس هذا الهواءِ الأخيرْ
لعصرٍ فقيرْ
لقدّاس أرضٍ صحتْ من سنينْ
بنا امتلأتْ، وارتوت من دمٍ،
واهتدتْ بالمعاني
لثديٍ نماني، وصدرٍ طواني
وحجرة أنثى توزّعني
في طريق الغياب الدفينْ

وتجمعني في خليّة نحلٍ صحوتُ عليها فتياً
تضيءُ المسافةَ بيني وبيني...
أتحنو عليَّ، وتبرئني كفُ عشبٍ،
تناولني كسرةَ البركهْ
وتوقظني إذْ رضيتُ عرافتَهَا،
ثمّ يصحو المغنّي !
لمن كلُّ هذا الهواء؟
لمنْ أقبلتْ جمرةٌ، ووردةٌ،
دمعةٌ، نسمةٌ، ملكهْ؟

***

إرى شارةً أوعلامهْ
فهل تدركُ الجمهراتِ القيامهْ؟
على الأرض كان دمٌ،
في الهواء دمٌ،
وعلى الشمس كان دمٌ،
ساعةٌ، ساعتان، ثلاثْ...
وينهض من قبره الناصريّ !
فمن سيكون معهْ ؟
وهل تسقط الأقنعه؟
وللأرضِ في لحظة الصّلبوت نهارٌ عَلِيّ
يناولني من شعاع التراثْ !
أرى غسقاً من دمٍ ووجوهْ
أرى غسقاً يكتوي وارثوهْ
أرى جثثاً ومدى ورصاصاً
سديماً، دخاناً ...
أرى قاتلاً قرب مائدة الأرضِ...
ماذا أرى؟
سلاماً لنسلِ الثرى والثرى !

***

سلاماً لسنبلةٍ من هواءْ
لأرضٍ يبايعُهَا عاشقوها
تربّي بنيها، وينمو بنوها
على شمس شاعرها الباقيهْ !
أتُغْلَبُ فيها القصيدةُ، ثمّ تُوارى،
وتهدم بيتَ طفولتها الفئةُ الباغيهْ !
سلاماً لماءٍ أخيرٍ، لحقلٍ صغيرْ
لأقمطةٍ ولأسمالِ بيتٍ فقيرْ
لنخلةِ دارٍ يتوّجُهَا رُطَبٌ في ضفيرهْ
لكرمتها، لسماء الجذور، لنار الجذورْ
لرائحة البيت يعبق فيها عجينٌ، خميرهْ
لزيتونةٍ من أكفّ الجياع العراةْ
لأغنية شاركتني المسرّهْ
لأرضي الأخيرةِ،
للمعدن الآدمي الفقيرْ !
فلمَ يبقَ حلمٌ،
ولم يبقَ من خمرة الوقتِ قطرهْ
ولم يبقَ وقتٌ، فتنمو الحياهْ !

***

سلاماً لسنبلةٍ من هواءْ
لجنيّةٍ حملتني إليها...
فكيفَ اكتهلتُ ؟ متى شخْتُ؟
أين جنوني القديُم وحلمي القديمْ؟
وهل هذه برهةُ المعدنِ الوثنيِّ،
تشكّلها السلطةُ المعدنيّةُ...
للوقت قدّاسُه المعدنيُّ...
موائدُ ، أدمغةٌ، وأكفٌّ،
حناجرُ من معدنٍ...
هذه سلطةٌ للمواد إذاً،
سلطةٌ للرماد الأخير وللكائن المعدنيْ...
ولي سلطةُ الحلم وحدي !
ولي أن أكونَ أنا،
أن أُجابه وجهي وضدّي !

***

وداعاً لأنثى من الدم، أنثى من الطينِ،
تحملُ بي أذ أموتُ
وتعلنُ بعثي
أكون أنا إذ نكون معاً،
وهي التوْأمُ
وداعاً لوقتِ الأكفِّ التي تحلمُ...
لشعبٍ من القمح يسعى فقيرا،
يُبادُ أخيرا،
فيهوي ترابٌ، يهاجرُ ماءٌ،
ويذوي هواءْ !
وداعاً لأيام روحي الفقيرهْ !
لجنيّةٍ لبستني وتلبسني منذ وقت الطفولةِ،
كم كنتُ أجري وراء جديلتها،
وتنير بثديين من عسلٍ عتباتي....
وكم غبتُ، كم ضاق بي عالمٌ معد نيّ...
وكم سأضيعُ وكم سأعاني !

فأين أراها؟ وهل ستراني؟
أشمُّ حديق عشقٍ وسرّتها،
إذْ دنوتُ بها من قصيدة عشقٍ أخيرهْ !
وكم غبتُ، كم متُّ !
أين غفوتُ؟ وكيف صحوتُ؟ وأين أقيمْ؟
وداعاً لجنيةٍ شاركتني جنوني القديمْ
وما بيننا حضرةٌ وحجابٌ ونورْ !
يموتُ الجميعُ، وتظلمُ أرضُ الغيابِ،
فتظلمُ أرضُ الحضورْ !

***

إلى أين يرحلُ هذا الهواءْ؟
سلاماً لسنبلةٍ من هواءْ !

حمص